

# ابن بطوطة يرسم ملامح الصين في القرن الرابع عشر: ازدهار اقتصادي ونظام أمني صارم وبواكير الأوراق النقدية



الثلاثاء 16 يونيو 2026 11:00 م

تقدم رحلة الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة واحدة من أهم الشهادات المباشرة عن أحوال الإمبراطورية الصينية في القرن الرابع عشر الميلادي، حيث رصد ملامح حضارية واقتصادية وأمنية لافتة، ما تزال آثار بعضه ممتدة في الصين الحديثة.

وتأتي هذه الشهادة ضمن سياق تاريخي أوسع للعلاقات العربية الصينية التي امتدت لقرون طويلة، لم تكن فيها التجارة وحدها الرابط، بل المعرفة والرحلات الجغرافية والتبادل الثقافي، في وقت كانت فيه الصين إحدى أهم مراكز الإنتاج والثراء في العالم القديم.

## جذور ممتدة لعلاقات عربية صينية مبكرة

تشير المصادر التاريخية العربية إلى أن التواصل بين العرب والصين لم يكن طارئاً، بل يعود إلى ما يقارب ألفي عام، عبر طرق التجارة البحرية والبرية، وعلى رأسها طريق الحرير الذي ربط الشرق الأقصى بالعالم الإسلامي.

وقد وثق مؤرخون وجغرافيون مسلمون مبكرون هذا التواصل، حيث انتقلت السلع الصينية مثل الحرير والخزف إلى الأسواق العربية، في مقابل تدفق منتجات الشرق الأوسط إلى الشرق الآسيوي.

كما لعب البحارة والتجار العرب دوراً محورياً في هذا الاتصال، إذ وصلت سفنهم إلى موانئ صينية بعيدة منذ قرون مبكرة، ما أسس لوجود مجتمعات مسلمة استقرت في مدن تجارية رئيسية جنوب الصين.

## الصين في عيون الجغرافيين المسلمين

قدّم عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين، مثل أبي الحسن المسعودي، وصفاً دقيقاً للمدن الصينية وشبكتها التجارية، مشيرين إلى ازدهار الموانئ وامتداد التبادل التجاري عبر الأنهار الكبرى التي ربطت الداخل بالسواحل.

وتكشف هذه الروايات عن وجود مستقر للمسلمين في الصين منذ العصر العباسي المبكر، حيث وُجدت الجاليات الإسلامية في المدن التجارية، وتمتعت بهياكل تنظيمية تشمل الأسواق والمساجد والقضاة.

## ابن بطوطة: شهادة عيان على قوة الصين وتنوعها

يُعد ابن بطوطة أحد أبرز الرحالة الذين وثّقوا الصين في العصور الوسطى، حيث زارها في القرن الرابع عشر الميلادي، ودوّن ملاحظاته عن اقتصادها ومجتمعها ونظامها السياسي.

ويصف ابن بطوطة الصين بأنها أرض "كثيرة الخيرات والزرع والذهب والفضة"، ويشير إلى شبكتها المائية المعقدة التي ربطت المدن الكبرى عبر أنهار وقنوات ضخمة، جعلت التنقل والتجارة في غاية السهولة.

كما أبدى دهشته من مستوى العمران الكثيف، حيث بدت القرى والبساتين ممتدة على ضفاف الأنهار بصورة تعكس كثافة سكانية وتنظيماً زراعياً متقدماً.

## أول عملة ورقية في التاريخ

من أبرز ما سجله ابن بطوطة في رحلته إلى الصين هو استخدام العملة الورقية على نطاق واسع، وهو ما اعتبره تجربة اقتصادية غير مألوفاً في عالمه آنذاك

فقد لاحظ أن التبادل التجاري يتم عبر أوراق نقدية مختومة من السلطة، تُستخدم بدلاً من الذهب والفضة، مع إمكانية استبدالها عند التلف من خلال مؤسسات رسمية تشبه دور السك الحديثة

وتعد هذه الملاحظة من أقدم الشهادات التاريخية على نظام نقدي ورقي منظم، سبق أوروبا بقرون طويلة، وأثار اهتمام المؤرخين في العصر الحديث لما يعكسه من تطور مالي مبكر في الصين

## الإعجاب بالصناعات والدهشة من التفاصيل اليومية

سجّل ابن بطوطة إعجابه الشديد بالصناعات الصينية، خصوصاً الخزف الذي وصفه بأنه من أبداع ما يُنقل إلى العالم الإسلامي، حيث كان يُصدر إلى الهند والمغرب وسائر الأقاليم

كما لفت نظره الحجم غير المعتاد لبعض الحيوانات والمنتجات الزراعية، في مشاهد تعكس اختلاف البيئة الطبيعية بين الصين والعالم العربي

## تنظيم اجتماعي متعدد الأديان

يشير ابن بطوطة إلى وجود تنوع ديني داخل الصين في ذلك الوقت، حيث تعايشت جماعات مختلفة داخل المدن، مع وجود مسلمين ونصارى وغيرهم، ضمن مجتمع واسع متعدد الثقافات

كما لاحظ وجود أحياء خاصة بالمسلمين في المدن الكبرى، تضم مساجد وأسواقاً وقضاة، ما يعكس درجة من التنظيم المجتمعي المستقل للجاليات الإسلامية

## نظام أمني صارم ومراقبة دقيقة

من أكثر الجوانب التي أثار انتباه ابن بطوطة هو النظام الأمني الصارم في الصين، حيث كانت السلطات توثق أسماء القادمين والمغادرين، وتفرض رقابة دقيقة على حركة السفن والبضائع

كما أشار إلى نظام تفتيش ومتابعة للمسافرين في الطرقات، مع تسجيل رسمي لكل محطة يصلون إليها، في صورة مبكرة من الإدارة البيروقراطية المنظمة

وقد اعتبر هذا النظام من أكثر الأنظمة صرامة ودقة في عصره، سواء في حماية التجارة أو تنظيم حركة الأفراد

## حضور المسلمين ودورهم في المدن الصينية

وثّق ابن بطوطة وجوداً إسلامياً نشطاً في مدن جنوب الصين، حيث استقبله المسلمون بحفاوة كبيرة، ووجد قضاة وشيوخاً وأعياناً يديرون شؤون الجاليات

كما أشار إلى تنوع أصول المسلمين في الصين، إذ قدموا من مناطق مختلفة مثل العراق وإيران والمغرب، ما يعكس طبيعة الشبكات التجارية العابرة للحدود في ذلك الزمن

## بكين وقصر الإمبراطور

عند وصوله إلى بكين، وصف ابن بطوطة المدينة بأنها من أعظم مدن العالم، ولاحظ وجود قصر ملكي ضخم في وسطها، تحيط به إدارة مركزية وجيش واسع

وقد التقى ممثلاً عن السلطة الحاكمة في إطار مهمته الدبلوماسية، قبل أن يغادر عائداً إلى وجهته، بعد أن دوّن واحدة من أهم الشهادات العربية عن الصين في العصور الوسطى